

الذات المؤلفة في "رجع الصدى" بين الاسترجاع والابتداع

writer's self in "'Raj' al-Sada" " between remembrance
and invention

د. فتحي فارس

كلية الآداب منوبة / جامعة منوبة
تونس

fathifares@hotmail.fr



الذات المؤلفة في "رجع الصدى"¹ بين الاسترجاع والابتداع

د. فتحي فارس

"في جدران طفولتي من الأسرار ما يعادل سور الصين"
أندريه مالرو

الملخص:

تدرس هذه الورقة البحثية حضور الذات المؤلفة في خطابها فتقتفي أثر الذات في مؤلف "رجع الصدى" للكاتب التونسي محمد العروسي المطوي، بالتركيز على وجهين بارزين لأنا: وجه يستعاد من الماضي تنسج ملامحه الذاكرة، ووجه يتدعه الخيال من ممكنات الحياة. لذلك يتتبع البحث فعلين أساسيين ينسجان صورة الذات في هذا المؤلف هما "التذكر" و "التخيّل" في إطار تصوّر يشدّ الصلات بين الكتابة والوجود ويرصد تجليات الذات في النصّ ووجوه حضورها فيه وملامحها المرسومة كلماتٍ وارتسامات ظلالها عليه. كلمات مفاتيح: الذات المؤلفة، الاسترجاع، الابتداع، محمد العروسي المطوي، "رجع الصدى"، السيرة الذاتية.

Abstract:

This research paper studies the presence of the author's self in its discourse, tracing the self in the book "Raj' al-Sada" by the Tunisian writer Mohamed al-Aroussi al-Matwi, while focusing on two prominent aspects of the ego: a face recovered from the past whose features are woven by memory, and a face created by imagination from the vast possibilities of life. Therefore, the research traces two basic actions that weave the self-image in this book; which are "remembrance" and "imagination"; within the framework of a conception that tightens the links between writing and existence and monitors the manifestations of the self in the text as well as the faces of its presence in it. It also draws the features of the self with words projecting its own shadows.

Key words: autobiography, remembrance, author's self, invention, "Raj' al-Sada", Mohamed al-Aroussi al-Matwi.

1- هو نصّ في السرد الذاتي كتبه العروسي المطوي آخر حياته يعود فيه بالذاكرة إلى سنين النشأة الأولى، انظر: رجع الصدى (نصوص روائية من جنس السير الذاتية)، الدار العربية للكتاب، تونس، 1991. كلّ الإحالات الواردة داخل النص بذكر الصفحة هي من الطبعة نفسها.

1- مقدمة:

يبرز حضور الذات في النصّ الإبداعيّ السرديّ العربيّ أمراً لافتاً منذ ثلاثة عقود أو يزيد، فقد غلبت على هذا الإنتاج نزعة جديدة حملّ فيها السارد صوتين؛ صوت السارد الذي يروي، وصوت المؤلف الذي يقف وراءه، في تداخل فنيّ بين مقاميّ السرد والكتابة، يؤكّد حضور الذات في نصّها بشكل قويّ. فنشأ عن ذلك اتّجاه بدأ يسود في السرد العربيّ الجديد، هو اتّجاه "تذويت السرد" و"سرد الذات".

وقد كتب الأديب محمّد العروسي المطوي في مجالات كثيرة، وخلف مدوّنة أدبيّة متنوّعة النصوص والآثار، مثل أعماله الإبداعية في الرواية (ومن الضحايا، وحليمة والتوت المر)، والقصة (طريق المعصرة) والمسرح (خالد بن الوليد) والشعر (فرحة شعب، ومن الدهلين) والسرد الذاتيّ (رجع الصدى). وهي نصوص تكشف سمة بارزة في منتجه مفادها حضور الذات المؤلفة في صور شتى تتغيّر بتغيّر مجال الكتابة وأشكال التعبير وطرائق الإبداع والتفكير والتصوير. ولكّنها تنجلي على نحو أوضح في "رجع الصدى" أين تنسج الذات استرجاعاً وابتداعاً استناداً إلى لذّة الاستحضار: "لا يفتأ يعيد ويعيد فيشعر بجلالة الذكرى ولذّة الاستحضار"¹ واعتماداً على متعة الابتكار: "كانت سبحا طويلا في التخيل والتصوّر والتوليد والابتكار"². وتوطّر هذه الورقة أمور ثلاثة:

الأمر الأوّل هو اهتمامها بالذات وظلالها المرسومة كلمات واشتغالها بالأنا المسرودة كما عرّكتها يد السارد من طين الحياة وماء الكلمات في "رجع الصدى" تقتفي فيه آثار الذات وترصد حضورها بين صفحاته بحثاً في ظلال النصّ ذاته والمخيال الذي يمتح منه نصّ العروسيّ المطويّ شخصيّاته وصوره وبناءه. والأمر الثاني هو التسليم بأنّ الذات المنشئة للخطاب تتشكّل وهي تنشئ الكلام وتحدث ذاتها وتبتدعها. فهي منشئة ناشئة؛ منشئة للنصّ ناشئة فيه وبه وتلك كفاءة المبدع "أن يتنزّل في خطابه ذاتا تتشكّل وتنمو في جدّان الخطاب"³

والأمر الثالث هو أنّ البحث في الذات من هذا المنظور ليس قراءة إحيائية ترصد العلامات المرجعية لحضور ذات العروسيّ المطويّ في النصّ المبدع، وإنّما هو أقرب إلى القراءة الاحتمالية التي تلتقط ملامح الذات من ظلالها الوارفة المنتشرة في المتن النصّي وتتفكّر الذات المبدعة، ذاتا كاتبة وذكاء سردية، لا تنعزل عن الشرط التاريخيّ والموضوعيّ الذي يسيج وعيها بكونها ذاتا مثقفة منخرطة، في إشكاليات واقعيها.

انطلاقاً من هذا تصوّر في حضور الذات المؤلفة في خطاها تدرس هذه الورقة وجهين لهذا الحضور المعلّم بفعالين أساسيين ينسجان صورة الذات في "رجع الصدى" هما "التذكّر" و"التخيّل" في إطار تصوّر يشدّ الصلات بين الكتابة والوجود ويرصد تجلّيات الذات في النصّ ووجوه حضورها فيه وملامحها المرسومة

1- "رجع الصدى" ص 76

2- المرجع السابق، ص 95

3- أحمد حيزم، من شعريّة اللّغة إلى شعريّة الذات، دار صامد للنشر والتوزيع، صفاقس/تونس فيفري 2010 ص: 211

كلماتٍ وارتسامات ظلّالها عليه. فالذاكرة تتحسّسُ بها منابت النشأة والإبداع ترمّم به حضورها في تجربة التقلّبات والتعثرات

2- الذات المسترجعة (التذكّر):

يسرد المؤلف في "رجع الصدى" جزءاً هاماً من سيرته زمن الطفولة، ويتنقل بين محطات عدّة من تاريخه الطفليّ دون اعتماد السرد المتسلسل الذي يميّز السيرة الذاتية. فالراوي لا ينفكّ يسترجع طفولة "الفتى" عبر شريط استرجاعيّ هابط من حيث الإيقاع الزمنيّ (من عمر السنتين: أسبق مخزون يتذكّره إلى المراهقة الأولى (14 أو 15 سنة). وفي العنوان بعض دليل على الاسترجاع؛ فالـ "رجع" فيه معنى "الرجوع" وفي المتن دليل أمتن؛ إذ تسترجع ذكريات الشخصية وتفصّل تقاسيمها، وتذكر مواهبها بواسطة فعل التخيل والتذكّر والبوح والاسترجاع (يذكر) ما ينزل النصّ في مستوى أوّل ضمن السرد الاستعاديّ.

والاسترجاع analepse حاضر بقوة في خطاب السارد ومعجم السرد، حتّى لا تكاد تخلو صفحة تقريباً من تذكير بأنّ السارد يتذكّر ومثال ذلك قوله: "إنّه ليذكر أنّه كان ابن سنتين..¹" "أسبق مخزون في ذاكرته..²". وفي الصفحة الثامنة وحدها يتردّد فعل "يذكر" ثمانيّ مرّات تأكيداً للتعويل على هذه الآليات في سرد الذات. ويكون الاسترجاع باستخدام فعل الذكرى ومشتقاته (الذاكرة، الذكرى، يتذكّر، يذكر...) أو مداراته (يختزن، يحفظ..).

وما يدعم هذه الوجهة إلى القصّ الارتداديّ ما يلمس القارئ من صلة الرواية بالحكاية، فزمن الحكاية ينتهي إلى الماضي (منذ سنين وعقود/هناك) في حين تجري الرواية في الراهن (الآن وهنا). وما الاسترجاع (الارتداد) سوى "سرد لاحق لحدث سابق"؛ فلا بدّ إذن من استحضار ما مضى. ويتوسّل الخطاب السرديّ في "رجع الصدى" جملة من الأفانين في تجسير الهوة بين الزّمنين، فيكون باعتماد:

"كان" في ذكر الأحوال (كان نفاضة جراب أبويه... كان الوحيد في القرية...)

و"كان + الفعل المضارع" في رواية الأفعال (كان يختزن ويتذكّر، كان الفتى يشعر...، كان يسمع..). وباستعمال المؤشّرات الزمانيّة الدالّة على التباعد نحو قوله: "لقد قيل له فيما بعد...³ و"لما سيعلّمه فيما بعد وفي البعد"⁴...

وتمثّل تعيينات الفضاء والزمان هي الأخرى علامات مرجعيّة تستحضر ماضي الشخصيات (عبد السلام الأسمر، سيدي أبو لبابة، عبد الكريم الخطابي...) والمكان (لماية، العين المطويّة، المطويّة، قرية الظهرة..) والزمان. (كنت يوم 24 نوفمبر 1924...، ثورة عبد الكريم الخطابي على فرنسا سنة 1925...).

1- "رجع الصدى" ص8

2- المرجع السابق، ص11

3- المرجع السابق، ص40

4- المرجع السابق، ص41

وليس التذكّر فعلاً مطواعاً ينقاد بسهولة ويستجيب بيسر، وإنّما فيه مكابدة ومجاهدة، لذلك "لا يفتأ (الفتى) يعيد ويعيد" (ص76) تمريناً للذاكرة وتدريباً لها حتّى تكون الاستجابة والنصر "فيشعر بجلالة الذكرى ولذّة الاستحضار". ورغم معاندة الذكرى تأتي أغلب الحكايا من منبع التذكّر ومن عمل الذاكرة. وتكشف هيمنة الأفعال الذاكرية أنّها مصدر أساسي في كتابة الذات ورسم ملامحها زمن الطفولة. ويبرز الاسترجاع في النصّ استرجاعين:

. استرجاعاً حديثاً هو من مسؤوليّة الذاكرة الحديثة فيه خلع المطويّ صندوق الذكريات وفتح حدائق الذات رجع صدى روح ألمها الصمت، فإذا ببعض الوقائع تتسرّب من شقوق الذاكرة، واذ تزدحم الأحداث في رأس السارد/المؤلف يشغل غرباله فما يستعاد من الوقائع الجماعية والحوادث الذاتية إلّا الهامّ المهمّ؛ فإذا للفتى أيام كأيّام العرب (يوم القرّة، يوم الطيّارة، ليلة الجراد...).

. استرجاعاً نصّياً هو من مسؤوليّة الذاكرة النصّية وبه تستحضر جملة من النصوص المبتوثة على امتداد "رجع الصدى" من مثّل سائر (حمل الجماعة ريش) وشعر دائر (كانت بلاد عامرة أمّالها *** قعدت خراب لليوم يغرد فيها). وأحجية ذائعة (ستّ رجلين وستّ يدين وثلاث روس فيهم عين¹) وخرافة شائعة (حكايات الخالة مريم حول "الشعاطيط والبعايط²).

وقد تعاضدت في "رجع الصدى" الذاكرتان الحديثة والنصّية في صوغ الذات المسترجعة، فالمؤلف يكتب ذاته من خلال تجربته الحياتية ولكنّه ينسج برد حكاياه أيضاً انطلاقاً ممّا تعمر به ذاكرته من نصوص. وتبدو الكتابة من هذا المنظور الاسترجاعيّ بوحا حذراً يعبر عن الحضور في العالم وساكنيه. فالمؤلف يعلن عن نفسه الفتية ويبني ذاته في لبنات الوجود.

غير أنّ ما ذكرنا من تقنيّات الارتداد الذاكريّ لا يمكن أن يجرى على مفهوم "الملاءمة المرجعية adéquation référentielle" أي تطابق محكيّ السارد مع ما جرى فعلاً للفتى تطابقاً تاماً. فهذه المطابقة مستحيلة من جهة "اختلاف المادّة التاريخية (وقائع حسية ونفسية/جدول قيميّ) عن محملها الكتابيّ وهو من طبيعة رمزية (جدول إنشائيّ)"³ ويمكن أن يفهم على سبيل مرونة المرجع الذاتيّ وقابليّته للتعديل والتفريع والزيادة والحذف ...

وتعرض مختلف مكوّنات السرد الاسترجاعيّ المذكورة سابقاً من معجم ومكان وزمان وشخصيّات وأحداث وتواريخ... الذات على نحو مخصوص.

فالسرد الذاكريّ في "رجع الصدى" لا يهب الصّورة مكتملة عن الدّات، إنّما يتركها نهبا لخيانة الحكاية وسطوة النّسيان. لذلك، تصل إلينا طفولة الذات في لوحة سردية استرجاعية منقوصة أنتجها اختيار جماليّ لكتابة شذرية تجمع شظايا طفولة موزّعة على أماكن مختلفة وأزمنة متنوّعة. فلم تكن الصلات متينة بين

1- المرجع السابق، ص 45

2- المرجع السابق، ص 50

3- جليّة طريطر، أدب البورتريه، مؤسّسة الانتشار العربيّ و دار محمّد علي، صفاقس تونس، 2011، ص108

مقاطع النصّ ووحداته سواء في مستوى التتابع الزمنيّ أو الحبكة القصصية، إذ يُلاحظ تباعدٌ كبير بين أزمنة الحكايات وتقطعٌ جليّ في حبل القصّ؛ فإذا الفتى المرسوم كلماتٍ أصداءُ ألوان بدأت تهت ورجعُ أصوات أنشأت تغييم. إنّ شخصيّة الفتى كما تجلّت من تقنيّات استحضار الماضي المختلفة قابلة للامتداد في نصوص ذاتيّة أخرى، فهي غير منتهية تستمدّ مرجعيّتها من قابليّتها للدخول في مقامات استدعائية تذكّريّة متداخلة متقاطعة (انفتاح النصّ).

وشخصيّة الفتى كما قدّمها الاسترجاع الذاكريّ ذات نامية تتدرّج في الحركة المكانية من الضيق إلى الامتداد (المنزل، القرية القديمة، قابس، تونس...). وتتدرّج في الحركة الزمانيّة من الأصغر إلى الأكبر (من عامين في الذكرى الأولى إلى 15/14 سنة...) وتتدرّج في الإدراك والتصوّر من الوعي البسيط السطحيّ (يستقبل المسائل وينفعل بها) إلى الوعي المركّب العميق (يحلّل الظواهر ويحكم عليها).

تشكيل الذات في هذا المستوى الاسترجاعي لا يبتز على رمزية الشخصية بل على إنسانيّتها المحدّدة بتاريخية الذات، ما يجعل الفتى أقرب إلى مفهوم "الشخص" *personne* منه إلى مفهوم "الشخصيّة" *personnage* رغم صعوبة الفصل بينهما. ونصّ "رجع الصدى" من زاوية علاقة الذات بالآخر، نصّ يمتح من ذاكرة صاحبه ويرسم جغرافيّة المشهد البشريّ الذي تغدّت منه ذات الفتى، لكنّه في الآن نفسه نصّ ذاكرة جماعيّة أشمل وأوسع تستغرقه وتمتصّه في ثناياها هي ذاكرة قرية جنوبيّة متحوّلة مع الزمان الجارف في الاسم (لماية، العين المطويّة، المطويّة) وفي الفضاء (القرية القديمة/عمق الواحة، القرية الجديدة (الظهرة) في ضرب من انفتاح المرجع الذاتيّ (حياة الفتى) على المرجع القرويّ (حياة القرية وناسها). فيكون تحيين الذاكرة وتفعيلها إعادة ترميم تاريخيّة الذات والوجود الجمعيّ. فتستعاد الذكريات في الخطاب السردّي لتملأ فراغ الراهن، لا إخباراً بما كان وإنما تحويلاً للتاريخ المعيش إلى وجود رمزيّ يثبت في المكتوب انتصاراً على الزمان "هادم اللذات" فيرجع إليه ليحيها من جديد مع تلك الذكريات¹.

وفي الجملة، لم تكن عمليّة رسم الذات عن طريق التذكّر عمليّة عابرة للأحداث والشخصيات/الشخوص والأماكن، وإنما كانت عمليّة واعية تستنطق الذكريات وتعيد صياغتها، وتبدو الذات كما تنجلي في خطابها الاسترجاعيّ ذاتاً مقتصدة في مديح الأنا زاهدة في تمجيدها ترجع الكثير من الأحداث التي غيرت مجرى حياتها إلى القدر والصدفة (حادثة الكوليج: فجأة ودون تخطيط يجد نفسه جالساً في أحد المقاعد بالكوليج²، وفي حادثة "التلفون" يجد نفسه بالصدفة "رجل الإنقاذ"³...

وهذه الصورة المتواضعة مخالفة لما ألف قارئ "الأيام" لطفه حسين و"أنا" للرافعي، و"حياتي" لأحمد أمين... ففي هذه السير، تنجلي هويّة الذات المسترجعة هويّة ذات عارفة متسامية بما تعرف مريدة متعالية في إرادتها وعزمها، واثقة في خطاها مطمئنة إلى تحقيق مشروعها، مشروع إثبات الذات عن طريق الكفاح المعرفي. وتلوح لنا خلفيّة صوغ الذات المسترجعة بالذكرى خلفيّة تمجّد الذات وتمتدحها وتحثفي بقدرتها

1- "رجع الصدى" ص 53

2- المرجع السابق، ص 51

3- المرجع السابق، ص 75

على تأسيس ذاتها بذاتها بالاستناد إلى يقينية ترتفع بالذات المؤلفة إلى مقام النموذجية وتعظيم الأنا برسم صورة الكمال التي تبرّر الكتابة عن الذات كما يذكر عبد القادر الشاوي في "الكتابة والوجود" وبتشديد صورة ذات مؤلفة مليئة بذاتها قد يصل بها الزهو بـ "أناها" حدّ الغرور والاعتزاز.

3- الذات المبتدعة (التخيل):

لا شيء يرتدّ إلينا من المرايا إذا صفت سوى ذواتنا عارية، ولكن إذا تباعدت المسافات وغامت الذكريات وتشوّشت المرايا كما هو الشأن في "رجع الصدى"، لجأ منشئ النصّ إلى الإبداع والتخيل يملأ بهما الشقوق والفجوات وييسّر بهما الركض في زوايا الذاكرة الخؤون. عندها ترتفع الذات المؤلفة على أريكة اللّغة وتسعى في ترتيب فوضى الوجود على رفّ البيان السردّي وبلاغة القصّ، فنكون إزاء مسلك ثان في رسم الذات يقوم على الابتداع¹ (l'invention de soi).

في هذا المستوى تتدفّق من أنامل المبدع ينابيع الكلمات، فيتغيّر معجم القصّ باتجاه لغة شاعرية إيحائية بالأساس ترسم على لوح الكتابة ذاتا تُنحت في صخر الكلم. فتتشقّق اللّغة بين يدي المؤلّف وتتناثر أشعةً من ضياء كلماته معلنة حضور الذات في خطابها فـ "للصّدى رنينه وحنينه" (صفحة الغلاف) وللّغة طاقمها على نقل مناخات الذات معجما وتركيبا وللقصّ آلياته في التصوير والتعبير. فالاختيارات التعبيرية التي تقوم بها الذات للتعبير والتصوير وتزرعها في شكل صيغ قولية مختلفة باختلاف نمط الخطاب ومقاصده هي ما يميّز الذات المؤلفة ويفردها.

في هذا السّياق من علاقة اللّغة بالذات والكتابة بالوجود الذاتيّ، أنشأ محمد العروسي المطوي "رجع الصدى" فضاءً لفظياً²، فيه يزرع من الصّور والمشاهد ما يشدّ به المتقبّل وينتقي من العبارات والتراكيب ما به يعرّف "بأناه"³ ويعبّر عن ذاته وقد اختار من المعينات ما يدلّ على حضورها (المكان: المطوية، قابس، تونس، الزّمان: 1924، 1925، الضمائر: الغائب المتكلّم، الإشارة: هذا، تلك، هنا هناك...، المواقف: القبول، الرفض...) ويستحضر عبر الذاكرة والتّخيل فضاءاتٍ ومشاهدٍ وذواتٍ يحلّ فيها ويقدم للقارئ من خلالها ذاته؛ فالذات المنشئة للخطاب السردّي في "رجع الصدى" تصوغ خطابها في مجموعة من الذوات وتتقمّص مجموعة من الأدوار تكون بواسطتها حاضرة غائبة في الآن ذاته، وتتسرّب عبر نظام الإضممار، فتجري في ضمير الغائب والمتكلّم وتطلّ على القارئ في كلّ مرّة من كوة هذا الضمير أو ذلك تراوغه وتختاله عبر ما تختار من أفانين القول وصيغ الحضور والغياب.

1- Jean- Claude Kaufmann, L'invention de soi. Une théorie de l'identité », Questions de communication, 7 | 2005, 478- 480

2- محمّد رشيد ثابت، الأنا بين الإنشاء والنشأة في خطاب السيرة الذاتية، موارد 10 عدد كلية الآداب والعلوم الإنسانية بسوسة 2005 ص: 30.

3- Michel Zink, La Subjectivité littéraire autour du siècle de saint Louis, Paris, PUF, « Écriture », 1985, P : 77

ومن الأفانين المعتمدة في النصّ التباعد distancing عن طريق التلاعب الضميريّ واستدعاء راو شاهد يراقب الفتى ويخبر عنه. فاستخدام ضمير الغائب والزمن الماضي يحدث مسافة بين زمن الكتابة (زمن السارد الكهل)، وزمن الحكاية (زمن البطل الطفل)؛ مسافة تمتصّ حرارة الأحداث وتقلّ أثرها النفسيّ وتقود إلى ضرب من الحياد البارد.¹ وقد أضعف هذا الاختيار، في تقديرنا، رسم الذات رسماً نفسياً. فالتصوير الخارجيّ المنقول بواسطة عيني الراوي ووعيه قلّص مساحة الوصف النفسيّ العميق وحدّ من مساحات النزول إلى أعماق الذات وبواطنها رغم ما يمكن أن يمثله ذلك من إمكان قصصيّ وثراء دلاليّ ومادّة بيوجرافية حيّة. فجاءت لغة الوجد الطفليّ في "الرجع" صامتة مصطخبة، وكان خطاب الفرح فيها صائتاً صامتاً.

ومن تجلياتّ الابتداء في رسم الذات التصوير بالآخر؛ إذ كان التنوع في الشخصيات سبيلاً سلكه منثنيّ النصّ إلى إنشاء الذات. فتزاحمت في "رجع الصدى" الشخصيات وتنوّعت؛ فمنها القريب المألوف (سي عمر المؤدّب، البشير الصديق، الخالة مريم، العجوز عائشة...) ومنها الغريب العجيب (لعوج بن عناق، بوغرة، بو تليس، الشعاطيط...) ومنها النبيل ذو الجلال (الأولياء والأقطاب: سيدي بولبابة، عبد السلام الأسمر، عبد الكريم الخطابي). وليس إحصار هذه الشخصيات وتنوعها تقديمها لها في ذاتها، وإنّما لصلتها بوجه من الوجوه بالذات المؤلّفة (سيدي عبد السلام الأسمر هو الجدّ البعيد للمؤلّف، والعجوز عائشة زوج الفتى، ...) فالمؤلّف يصوغ خطابه في مجموعة من الدّوات تنوعاً للزوايا التي يعرض منها ذات الفتى.

ومن آلياتّ الابتداء المعتمدة في رجع الصدى قصّ الآخرين الذي كان مجالاً لرسم الذات. فالفتى كان سمّيعاً يصغي إلى الحكايات والروايات؛ "كم كان يسمع"² وأيضاً "كانوا يحكون..."³. كثيراً ما يتكئ المطويّ على السماع ويعيد إنتاج محكيّات الآخرين (قصّ الخال لحكاية "لعبة القتال بالمقلاع" وقصّ الخالة مريم لحكاية "الشعاطيط البعاطيط"⁴. وقد يكون تصوير الذات بالانتقال من السّماع إلى الابتداء كما في حكاية العجوز العزباء العمّة عائشة التي "كانت له سبحة طويلاً في التخيّل والتصوّر والتوليد والابتكار"⁵. اختطف من حكاية صديقه "عزوبية عائشة العجوز الستينية" وبنى عليه حكايات وحكايات كانت موضوع أسمار العائلة. ومن أهمّ آلياتّ الابتداء في "رجع الصدى" الانتقائية، إذ تلوذ الذات الساردة بالنسيان غربالاً تصفّي به ما يمكن أن يقال وما يحسن السكوت عليه. "إنّه يجهل أو نسي تماماً..."⁶، "إنّه لا يذكر أيّ شيء"⁷ ... ولملء شقوق الذاكرة تركز الذات إلى التخييل؛ يقول: "لكنّ الفتى يسبح به الخيال"⁸ ويذكر في الصفحة الثانية

1- تخلو رجع الصدى من علو نبرة البوح، وسطوة الاستبطان والتعريّ السيكولوجيّ وتكاد تكتفي بالتصوير الخارجيّ.

2- "رجع الصدى" ص 71

3- المرجع السابق، ص 83

4- المرجع السابق، ص 50

5- المرجع السابق، ص 95

6- المرجع السابق، ص 66

7- المرجع السابق، ص 67

8- المرجع السابق، ص 97

والثمانين "ظلّ الفتى مدّة يحكي عن مغامراته وشجاعته في ذلك اليوم" وكثيرا ما "كانت الأسرة تثير خياله"¹ فينطلق في تفجير "النبع من الخيال الفيّاض"² ابتداءا لحكايات زواجه من العمّة عائشة ذات الستين التي ولدت له بلقاسم وعبد الحميد وسكن معها على أجنحة السحاب. هذه الحكايات التي "كانت سبحا طويلا في التخيل والتصوّر والتوليد والابتكار"³، وهذه الانتقائية المتكئة إلى النسيان المبرّرة بخيانة الذاكرة تنشئ نصّا تتنازعه يدان راسمتان: يد تكتب وتوقد شعلة السّفَر إلى حياة تواري شظاياها المنتشرة حول الفتى وتنزح ما انغرز منها في ذاكرته، ويد تمحو وتسدل السّتار لتبقى الذكرى مطويّة في غياهب البئر. وقد يكون للفتى في جحافل السنين التي أوجعته كلُّ مبرّرات المحو.

إن الخيال ركن أساسي من أركان الكتابة الذاتية في "رجع الصدى"، دونه تخرج من كونها فنّا أدبيا له شعريّته الخاصّة... وابتداع الذات في هذا المستوى هو تشكيل مفردات العالم بكلّ ما كان يحمله من تاريخ وقضايا وشخص، وما ينداح عنها من موضوعات تمسّ جوهر الممكن والمحتمل في عالم الفتى الخاصّ والعامّ. ومن هذا المدخل يمكن أن نرى انفتاح النصّ السيرّي (الصوت) على التخيل (الترجيع) رفدا للنصّ بجوانب أخرى تغدّي الحكاية السيريّة وتوسّع من أبعادها "لتستقبل في نسيجها أفقا تاريخيا متاخما لأفق النصّ يفيض عنه ويفتح في نسيجه بياضات لغاية ملّها"⁴.

يوظّف الحوار أسلوبا من أساليب التخييل الأدبيّ لتمثيل الوقائع المتذكّرة والإيهام براهنيتها قصد محاصرة حقيقتها الجوهرية (التي تتخطّى عرض الحدث سطحيا) التي لا يجلوها إلا فعل الكتابة الإبداعية الذي يجسّر الهوة بين تاريخين: "تاريخ الذات المؤلفة ترتدّ إلى زمنيّتها الماضية تحتضنها وتعيد إنتاجها لتلمّ شتاتها وتاريخ القراءة تسعى إلى إدماج زمنيّتها الراهنة في زمن النصّ"⁵ فيكون ترهين الماضي المسترجع ونشره في زمن القراءة.

في "رجع الصدى" كتب المطويّ حياة الفتى الحاصلة والممكنة، ومدّ ذاته "أصداء" هي "ومضات مضيئة تنير عن بعد وتوحي بالأحلام والرؤى....." و "أرجاعا" تختلف ذبذبتها ويهيم انتشارها في اللانهائيّ... (صفحة الغلاف الثانية). فإذا بالقارئ إزاء أطياف ذات، لا تكون الكتابة اقتفاء لأثرها بعد أن تشكّلت واكتملت (وتأتي الكتابة لتكتب عنها)، وإتّما الكتابة هاهنا ضرب من ممارسة الوجود وصوغ الذات وتأملها.

وترسم لوحة ابتداع الذات وجه الفتى يفتزع لحياته مسالك أخرى حين كرهت نفسه السير في إثر الماشين الغافلين، وتبرز الحنين المقيم في أعماق الفتى إلى عطر الأرض يعبره. هو المقيم بالعاصمة. ولم يبق منه غير الصدى الغائم. وتُرْكَب ذاتا منشطرة يغلّها الحنين تارة فتأتي متعالية سامية بما تملك من تفوّق نسبيّ على

1- المرجع السابق، ص 93

2- المرجع السابق، ص 95

3- المرجع السابق، ص 95

4- جليلة طريطر، مرجع مذکور، ص 115

5- نفسه ص 122

الأقران في المدرسة (الأول في الإنشاء) وفي الحياة (سعة الأفق)، ويكسرهما الواقع أطواراً أخرى، فتبرز الذات هشة يغلب عليها التردد والخوف.

وهذه الذات المترددة تمثل صورة جديدة للذات المؤلفة في السرد الذاتيّ العربيّ لا تخلع الأنا عن عرشه ولا تعلن نهاية المؤلف وموته، لكنّها تعيد تشكيل ملامحه على أساس يجدد حضور الذات المؤلفة في النصّ السرديّ العربيّ المعاصر وفق هويّة سردية مغايرة ليست نموذجية نمطية، بل هي حيّة في ترددها بين النجاح والخيبة واقعية في تأرجحها بين الإرادة والانكسار.

4- التّأليف: بين هويّة الذات وهويّة النصّ:

تتجلّى "الذّات" في "رجع الصّدى"، "منشئة للخطاب" و"ناشئة عن الخطاب وفيه" سواء في مستوى الاسترجاع أو الابتداء. فليست ذات الفتى المسرودة في النصّ معطى قبلياً سابقاً على الكتابة، وإنّما هي "نتاج حدوث تعرّف ذاتيّ الكينونة، نتاج ذاتيّ في حدوث التّعريف التدرجيّ"⁽¹⁾ بواسطة النسج الخطابيّ والتحبّيك القصصيّ. ووفقاً لهذا التّصوّر، لا تبدو هويّة الذات كائنة في جواهر سابقة عن الحدوث اللّغويّ، وإنّما هويّة الكائن "مميزة يكتسبها في حدثان الخطاب بما يلحقه من فواعل التّفرد"⁽²⁾ وليست هذه الفواعل سوى الاختيارات التّعبيرية التي تقوم بها الذّات للتّعبير عن الحال في شكل صيغ قولية يقوم فيها الكلام على التّسليم بأنّ ما يميّز الذّات ويفردها إنّما هو ما تتوسّل به اللّغة مختلفة في الكلام باختلاف نمط الخطاب ومقاصده"³.

ولا شكّ اليوم أنّ استرجاع الواقعيّ لا يخرج عن "القدرة التخيلية". فقد يقودنا الإحساس بهذا الواقعيّ الذي ولّى ومضى إلى أنّه حقيقة نراها الآن ونشعر بها ماثلة في أذهاننا، ولكنها في الحقيقة منطقة موجودة في اللاوعي تبدو وكأنّها ذات قدرة على التّشكّل والتلوّن والظهور مرّة أخرى بمظهر مغاير لما كان يدور في "المخيلة"، وأنّ محاولة استعادتها مرّة أخرى، ومعاودة استرجاع أحداثها التي مرّت عليها سنوات طوال، تجعل التلاحم بين الواقعيّ والمتخيل مؤسساً لواقع جديد، هو لا شكّ واقع إبداعيّ أنّي مشحون برؤية فردية أو جماعية خاضعة لقوانين المكان والزمان في شكلها الذي ينتسب إلى التّجربة الإبداعية. ومن هذا المنظور لا انفصال للاسترجاع عن الابتداء بل هو بعضه، والذات في مكوّنها "المرجعيّ" والتخيليّ "ذات منشأة بلغة القصّ.

وبعيداً عن كلّ الخلط الممكن بين "الأنا الحقيقيّ (je réel) والأنا المتخيّل (je fictif)"⁴ نقدّر أنّ الذات في "رجع الصّدى" كائن لغويّ ينشأ في الخطاب وهو ينشئه. فالكلمة هي التي صنعتها (الكائن) وبعثته من سبات

1- Francis Jaques :Différence et subjectivité – Aubier – Montaigne . Paris 1982.p 42

2- أحمد حيزم ، من شعريّة اللّغة إلى شعريّة الذّات ، دار صامد للنشر والتّوزيع ، صفاقس/تونس فيفري 2010 ص: 24

3- أحمد حيزم : مرجع سابق ص: 211

4- Arnaud Schmitt, Je réel / Je fictif. Au- delà d'une confusion postmoderne Toulouse, Presses universitaire du Mirail, coll. « Cribles », 2010, 203 p.

طينته الهشة، فإذا هو ذات تسعى تشيّد الخطاب وتبني ذاتا ذات هويّة متردّدة بين الفعل والانفعال. فالمرجعيّ (المسترجع) يراهن في نصّ المطويّ على توظيف المتخيّل (المبتدع) وصهره في مواضعه صهرا يذهب بما ألف من تصوّر يلزم بين المتخيّل والكذب والمرجعيّ والصدق.

وقد بدا لنا البحث في ثنائية "الاسترجاع والابتداع" في جانب منه منفتحا على هويّة النصّ ذاته انفتاحا وانغلاقا، فبينما كانت "الملفوظات المرجعية تراهن على جعل اللغويّ متعدّيّا معيدا لإنتاج سياق واقعيّ في بنية لغويّة"¹ مستعيدة ما جرى في سياق نظام الإحالة المخصوص الذي بني عليه خطاب الاسترجاع ويدعمه الميثاق القرائيّ، بينما كان ذلك كذلك، كان الملفوظ السرديّ في وجهه الابتداعيّ انفتاحا على مجالات الممكن والمحتمل.

يتحوّل تاريخ الذات المسترجع في كتابة "رجع الصدى" "لحظة زمنيّة بكرة" لا تستحضر ما كان كما كان وإنما تعيد إنتاجه بطريقة تراهن على إعادة صياغة الوعي بالذات لا مجرد الإخبار بما كان منها ومن ثمة "القيمة الإبداعية للفعل الكتابيّ الذاتي"².

وعتبه العنوان "رجع الصدى" تحقّق درجة من الانزياح الجماليّ عن العتبات العنوانية المعهودة في الكتابة السيريّة العربيّة (أنا/الرافعيّ، حياتي/أحمد أمين، سبعون/نعيمة...) ففي عبارتي العنوان "الرجع والصدى" كلّ المزج بين الاسترجاع التذكريّ (السيرة) والأصداء بما تعنيه من خيال واستهجمات (تخييل). كأنّ العنوان بذلك يعدل عن مألوف الميثاق القرائيّ الذي يلتزم قول الحقيقة بربط التخييل بمحكّيّ الحياة ورسم الذات، فإذا نحن في تلك المنطقة الحدودية بين جنس الرواية وكتابة الذات وإذا عقد التلقّي يدعونا إلى تقبّل ما يروى لنا في إطار جماليّة البين بين شكل من الكتابة رجراج لكنّه بالغ اللطافة يستعصي على التصنيف وفق الآليات والمعايير التي وضعها لوجون في شبكته المحدّدة للأجناس السردية أو جينات في تقسيمه الخطاب إلى ثنائية "التخييل والتعيين"؛ شكلا من الكتابة نافرا من التحديد المنهجيّ، متنكّبا عن السيرة الذاتية والرواية وعن أوهام الوضوح التجنيسيّ المفترضة، إلى دهاليز الذات وأنفاقها الحبلى بالمفاجآت المدهشة، ولعلّ عنوانه محمّد العروسي المطويّ لنصّه بـ "رجع الصدى" وتجنيسه بـ "نصوص روائية من جنس السيرة الذاتية"³ وجمعه فيه بين مرجعية السيرة وتخييلية الرواية بين سرد الذات المرجع وتخييلها، جعلت نصّه تعبيرا أوليا لولادة شكل سرديّ جديد على تخوم السيرة الذاتية من جهة وعلى عتبات الرواية من جهة ثانية، ومؤشرا معبرا عن وعي خفيّ بضرورة التغيير يجدّد السيرة الذاتية ويتنكّب عنها.

1- جليّة طريطر، أدب البورتريه، مؤسسة الانتشار العربيّ ودار محمّد علي، صفاقس تونس، 2011، ص 105

2- ادوار سعيد، خارج المكان، ترجمة فواز طرابلسي، بيروت، دار الآداب، 2000، ص 22.

3- رجع الصدى (نصوص روائية من جنس السير الذاتية)، الدار العربية للكتاب، تونس، 1991.

5- خاتمة: الكتابة والوجود:

الحياة التي جرّحت عواصفها "الفتى" في "رجع الصدى" لم تطهره جراحها. فكان لا بدّ من الكتابة، والمؤلف الكهل، حين ترهقه المعارك لا بدّ له أن يتمدّد في حزن الزّمان مسترجعا صدى حياة طفليّة قصيّة. فيجدّ الراوي في طلب الذكرى متّبعا المسار الارتداديّ إلى سنوات انطفأت ولم تبق منها سوى ملامح باهتة؛ إذ تتناسل السنوات وتكبر فجوات التذكّر وتتسع شقوق الذاكرة. فالطفولة ذلك النبع الذي تتغذى منه الذاكرة، تتوارى خلف خرائب الزّمان ولا يظفر منها الراوي سوى ببقايا ذكريات تدبّ في الروح يتمسّك بها ويقبدها بالكتابة رسما لفتى من كلام صورته صدى سَفَر في شعاب الحياة الممتدّة وصدوع الذات.

من هذه الزاوية، تبدو الحكاية سلاح المؤلف في مواجهة العدم (الاستعارة الشهرزادية الكبرى) ولعلّ ذلك ما جعل السمة الأبرز للذات في رجع الصدى هي سمة الحكيم؛ فالخال "محدث بارع" (1) و"للخال بايان والثالث عليه الخصومة" كما يقول المثل، وابن الأخت "الأول في درس الإنشاء" (2) والابتداع. فالفتى قد ورث براعة الحكيم (من الخال) وأبدع فيه باعتراف المؤسّسة المدرسيّة (هو الأول في الإنشاء) والأسرة التي احتفت بمهاراته السردية. و"رجع الصدى" أصداء صراع الذات مع الزمان، فالزّمان في نصّ "الصدى" دود الكيان، يقرض الذاكرة ويحوّلها إلى "أصداء" و"أطياف" ويقضم من طمأنينة الكائن فيلوذ بالكتابة يثبّت على جدرانها ما بقي من وشوم الذاكرة قبل أن تتلاشى.

ولعلّ أوضح رسوم الوشم وشم الطفولة، صورة الفتى "المطوي" الهاجع في زوايا الذاكرة ترتدّ بعد معاندة ومكابدة تجلوها صورة الفتى "المطوي" القابع في ثنايا الكلمات تفيض من أزمنة قصيّة.

على لوح الكتابة صدى ذكريات وعلى شاشة الذاكرة نصّان يتجاوبان هما الصوت والصدى على الضفّتين يتقابلان، فليس الفتى سوى رجوع تلك المصائر وإن تباينت أصدائها. وليست القصّة، قصّة الذات، سوى أصداء الأسفار في تجاويف الحياة الواسعة تتباعد أوقاتها وتختلف حالاتها تمّحي أو تكاد فيعيد المؤلف رسمها بماء الكلمات ممّا تجمّع في بئر الذاكرة (تذكّرا) وممّا ملأ شقوقها من أخايل (ابتداعا).



1- "رجع الصدى" ص 40

2- المرجع السابق، ص 96

المراجع:

- 1- ثابت محمد رشيد، الأنا بين الإنشاء والنشأة في خطاب السيرة الذاتية ، موارد عد10د كلية الآداب و العلوم الإنسانية بسوسة 2005
- 2- حيزم أحمد ، من شعرية اللغة إلى شعرية الذات ، دار صامد للنشر والتوزيع ، صفاقس/تونس فيفري 2010
- 3- سعيد ادوارد، خارج المكان، ترجمة فواز طرابلسي، بيروت، دار الآداب، 2000.
- 4- طربطر جلييلة ، أدب البورتريه، مؤسسة الانتشار العربي و دار محمد علي، صفاقس تونس، 2011
- 5- المطوي العروسي، رجع الصدى (نصوص روائية من جنس السير الذاتية)، الدار العربية للكتاب، تونس. 1991.
- 6- Kaufmann, Jean-Claude, L'invention de soi. Une théorie de l'identité, Questions de communication, 7, 2005.
- 7- Jaques Francis : Différence et subjectivité – Aubier – Montaigne. Paris 1982.
- 8- Schmitt Arnaud, Je réel / Je fictif. Au-delà d'une confusion postmoderne Toulouse, Presses universitaire du Mirail, coll. « Cribles », 2010.
- 9- Zink Michel, La Subjectivité littéraire autour du siècle de saint Louis, Paris, PUF, « Écriture», 1985.